أنا يُوسُف

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٣٢٧١
الترقيم الدولي: I.S.B.N
978-977-764-124-1

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الصوتي والمرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الطرق إلا بإذن خطي من الكاتب

دار المعرفة للنشر والتوزيع
خلف جامع الأزهر - بجوار مسجد عليش
ت: ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥
Email.elmarefa@hotmail.com

أيمن العتوم

أنا يُوسُف

دار المعرفة

(١)
لا جَزاء للصّبر غيرُ الفَوْز

ظلامٌ كثيفٌ، ليلٌ عميق، بردٌ قارسٌ، كلّ شيءٍ هامدٌ كأنّما ينتظر قدرًا غامِضًا، ألقت الأشجار رؤوسها على جذوعها يائسة، وذرّ التّراب نفسَه على الأرض مستسلِمًا. الحُداة ضلّوا، العارِفون خُدِعوا، والأولياء غرقوا في بُكاءٍ صامت، ورُغاء الجِمال في القوافل السّيّارة لم يعدْ مسموعًا. لا صوتَ غيرُ صوتِ الرّيح. الموت يمشي حافِيًا. الذّعر بلا قدمَين. العَتَمة سيّدة الأشياء، وحدها النّجوم الخجلى كانت تتراقص مثل ذبالة مِصباحٍ يوشكُ أنْ ينطفِئ في الأفق البعيد.

في تلك اللّيلة تَذاءَبت الرّيحُ حتّى أشبهَ عزيفُها عُواء الذّئاب.

من أين تخرج الذّئاب، كيفَ تولد، من أين لها هذه القدرة على التّكاثر الجنونيّ، كيف يختبِئ ذئبٌ خلف كلّ صخرة؟! كيفَ ينقادون (للعسعاس) بهذه السّهولة؟! كيفَ يسمعون له كأنّما رُكّبتْ في طبائعهم ألاّ يخالفوا عن أمره ولو مرّة واحدة؟!

صعد (العسعاس) الجبل، ركض في خطٍّ مستقيم، لم يكنْ من ذئبٍ من قبله يُتقن الرّكض في خطّ مستقيم مثله، كانت كلّ الذّئاب فيما مضى تدور حول نفسها، تتذاءب من كلّ جهة، تجري في خطوطٍ مُتعرّجة، تركض إلى جهتَين في الوقتِ نفسه، تنكفِئ على نفسها، وتصل متأخّرة. (العسعاس) أسرع تلك الذّئاب، سابقَ الرّيح ليصل إلى القِمة، وصلتْ من بعده بقيّة الذّئاب، أتتْ إليه من كلّ ناحية، تجمّعتْ حوله، لم يعدْ من

ذئبٍ في فلسطين ولا في الأردنّ إلاّ وجاء حاسرَ الرّأس، متوقّد الذّهن، حاضر القلب كي يسمع الموعظة، ذئاب (الزّرقاء) جاءت، وكذلك شهدت الموقعةَ ذئابُ (الكرك)، ذئاب جبال (صهيون) حضرت، و(قانا)، و(صفد)، و(الجليل). ومن (وادي القمر) وفدَ إلى الموقع عددٌ يَعِزّ من الحصر، أمّا تلك الذّئاب الّتي كانت تنام على ضفاف النّهر في أوقات السِّلم فكانتْ أوّلَ الحاضرين، قال كلّ ذئبٍ لأخيه: «العَسعاس سيقول اليوم حِكمته، فامضِ بنا إليه نسمَعْ منه، فما من أحدٍ عركتْه الأيّام مثله، وما من ذئبٍ عاشَ ما عاشَ، وما عرف مِنّا أحدٌ من الدُّنيا شيئًا إلاّ به، ولا فَهِمَ ذاتَه إلاّ فيه، وما صدرَ عن رأيٍ إلاّ عنه، ولا أدركَ الغاية من وجوده إلاّ بسببه؛ أفمنْ يقضي عمره في تدبّر أسرار هذا الكون كمن يمرّ عليها وهو عن آياتها من الغافلين؟!».

ذئابٌ نَسَلتْ من كلّ صوبٍ، وتسرّبتْ من كلّ جهة، كانوا كالنّمل، لم يَخلُ منها مَفحصُ قَطاة، غطّت الجبل عن أكمله، كيفَ يُمكن لهذا العدد المُرعب من الذّئاب أنْ يجتمع في مكانٍ واحدٍ؟! مدّ (العَسعاس) عُنُقه وعوى عُواءً حزينًا كأنّما هو قادِمٌ من بئرٍ عميقة، فقلّدْته كلّ ذئاب الأرض، برزتْ أنيابه من بين فَكّيه، فلمعتْ نيوبٌ كثيرةٌ على ضوء النّجوم الخافت، والقمر المُحاق. مدّ (العَسعاس) عنقه أعلى، فطامنت الذّئاب كلّها أعناقها، وبدتْ جذوعَ محاربين يستعدّون لمعركةٍ كبرى. عوى (العَسعاس)، فعوى كلّ ذئبٍ في تلك النّاحية، ارتجفت الرّيح. استيقظت الأشجار، ورفعتْ رؤوسها المُسدَلة عن صدورها. نهضَ الرّمل، وكادت الصّخور تتحرّك. تصاعدتْ موجة العُواء الجماعيّ إلى السّماء، كانتْ جارِحة حتّى ليكادُ المرء يشعر أنّها

سِكّينٌ حادّ يقطع القلبَ إلى نِصفَين. ظلّ (العسعاس) يعوي؛ تراجع صوتُ الرّيح لصالح هذا العُواء. رويدًا رويدًا أكلتِ السّماء الصّوت، وتوقّف (العَسعاس) عن العُواء، ثُمّ خفتتْ أصوات الذّئاب إلى أنْ سَكَنَتْ تمامًا، وجمدتْ أطرافها في مواقعها، وتشوّفتْ إلى الذّئب الأغبر لتسمع. قال (العَسعاس): «ما قتلْنا أحدًا عن رِيبة»، فهرّتْ صدور القوم مُؤمّنة على القول، ثُمّ تابع: «ولا خُنّا عن عهد، ولا نكصْنا عن مِيثاق، ففيمَ يكذبُ البشر؟!». تحرّكتْ مجموعةٌ من الذّئاب القريبة من (العَسعاس) تريدُ أنْ تقول شيئًا، فأشارَ إليها بعينَيه أنّ وقتَهم لم يَحِنْ بَعدُ، وتابع: «الله يُعرَف بالقلب لا بالنّقْل، ولو كان للبشر قلوبٌ لما طاوعتْهم أنفسهم أنْ يفتروا على الله، ولو كانوا يعرفون الله كما نعرفه لما عَصَوه، ولو كانوا أُمَناء في التّبيلغ عنه كما نفعل لما ضَلّوا، ولو كانوا يُدرِكون أنّ الأرزاق تجري على الأقدار لَمَا اقتتلوا، هل المحبّة إلاّ رِزق، وهل الفَهْم إلاّ رِزق، وهل الإيمان إلاّ رِزق؟! لكنّهم لمّا تركوا قلوبهم للحسد، وأرواحهم للطّمع، وعقولَهم للجهل، وأنفاسَهم للشّيطان ضَلّوا ضَلالاً بعيدًا». خفضت الذّئاب رؤوسَها وفحصتِ الأرضَ بأقدامِها كأنّما تريد أنْ تُدرك ما يرمي إليه (العَسعاس)، لكنّها انتظرتْ حتّى يُكمِل، فلعلّ الرّأي يكون في آخر القول، ذِئبٌ واحدٌ فقط ركضَ من قاعِ الوادي إلى القمّة، كان يبدو غَضًّا، لكنّه بِخلاف عمره ركضَ بخطٍّ مستقيم، وهذا لا يكونُ إلاّ للحُكَماء، حتّى إذا ما وصلَ إلى القِمّة، أذِنَ له (العَسعاسُ) بالقول لِما رأى من حُسْنِ مقصده إلى هدفه. «أنا الأطحل» قال الذّئب الغَضّ. ردّ عليه (العَساس) بابتِسامة أبدت النواجذ والنّيوب. تابع (الأطحل): «لكلّ مقالٍ غاية، فما غاية ما تقول؟

فإنّني تعلّمتُ أنّ القول إنْ لم يزدْ على عقلِ المرء فإنّه من الفُضُول».
ابتسمَ (العَسعاس): «العَجَلةُ تُورِثُ النّدم. لا خيرَ في مَنْ لم يُهذّبْ نفسَه بمقاومة جموحها النّابع من ثقةٍ مُضلَّلة. لقد تزبَّبْت وأنتَ حصرم، الطّريق الطّويلة الشّائكة الّتي تُوصل إلى نصرٍ دائمٍ خيرٌ من الطّريق القصيرة السّهلة الّتي تُوصل إلى فوزٍ خادع». سكت (الأطحل)، وألقى بنظره إلى الأرض خَجِلاً، وهمّ بالعودة، لكنّ (العَسعاس) استبقاه ليسمع، وليكنْ من بعده عونَ إخوته إنْ فارقَ هو الحياة: «أنا لا أدّعي الغيب، فلا يعلم الغيب إلاّ الله، ولكنّني أرى في ذلك الوادي...» رفع قوائمه الأماميّة وأشار إلى مكانٍ بعيدٍ، قليلِ البيوت، خافتِ الضّوء، تتصاعد من نوافذ الطّين فيه أدخنة تقي القاطنين برد الشّتاء: «مِن هناك نُؤَتى». نظرت الذّئاب كلّها إلى الموضع الّذي أشار إليه، ولم تفهم شيئًا، فتابع العسعاس: «من هناك الكَيْد، هل يأكل الإنسان إلاّ أخاه، وهل يُحزِنُ الرّجلُ إلاّ أباه؟! من هناك سيكبر قرن الشّيطان حتّى يُعمّي الأبصار، لكلّ نارٍ ماءٌ يُطفِئها، إلاّ نار الحسد فإنّها إن اتّقدتْ أكلتِ الأكبادَ والقلوب؛ فإنْ أصابكم من حسد البشر وكيدهم فاصبروا واحتسبوا، فإنّه لا جَزاء للصّبر غير الفوز».

عوتْ ذئابٌ كثيرة؛ لولا (العَسعاس) لضلّوا، لولا عيناه اللّتان نفذتْ إلى عالَمِ الجنّ والإنس لتخطّفتهم النّوائب، لولا معاشرته البشر ومعرفتهم على وجههم الحقّ لظلّوا مخدوعين بهم، ولولا مَشْيُه في نُجود الأرض وعِلمه بما يَصلح لهم وما يدفع عنهم ويذود عن مرابعهم لذهبوا مع الرّيح، ولولا خبرُ اللّيل الّذي جمعه في الدّجُنّات الباردة لما أمنوا الصّباح!! وعوتْ ذئابٌ كثيرةٌ من جديد.

(٢)
لا يُهاب إلا مَنْ كان ذا رَهط

استمرّ العُواء في تلك اللّيلة، لكأنّ الأرضَ نبذتْ إلى ذلك الجبل كلّ ذئاب المعمورة، لكأنّه الحجّ الأخير إلى الحَبْرِ الأعظم، لكأنّ الوداع من بعدُ لن يبقَى منه إلاّ رائحةُ الذّكرى، فلمْ يتخلّفْ عن رسول الحِكمة أحدٌ.

كان (الأطحل) يسمع نبضَ (العَسعاس)، (الأطحل) الّذي نبتَ في تربة الشّجاعة والحِكمة، كان أكثر الذّئاب شغفًا بالعِلم، وإنْ كانَ يشوبه التّسرّع لصغر سِنّه، وتقذفه الحماسة في مواطن النّدم في بعض الأحيان، لكنّه نذرَ عُمره للمعرفة، فما انشغل عنه إلاّ بالنّزر اليسير من الوقت الّذي يُقيت جسده ويسمح له بالاستِمرار في الحياة.

كان (الأطحل) رماديّ اللّون في جسمه كلّه، إلاّ عنقَه وبطنَه وفكَّيه، فكانت شديدة البَياض، كان طويل الأطراف، حادّ المخالب، مُتدلي الذَّنَب إلى العَقِب، قليل الفِراء إلاّ فيما جاورَ العنق، نحيل الجسم، ضامر البطن، مستقيم القوائم، غليظ الرّأس، قصير الوجه، أذناه صغيرتان مُنتصِبتان وإنْ كانتا حادّتَي السّمع، ممدود الخطم، أفطس الأنف، عريض الجبهة، عيناه الخَضراوان كَحلاوان، ولولا أنّهما لوزيّتان لكانتا عينَي إنسان، لِما يُرى فيهما من الهدوء والحِكمة والمودّة، ذهبتْ خُضْرتهما مع سوادِ جفنَيه ورماديّ فَروه الصّافي بالجَمال كُلّه. إذا أقعى،

ونصبَ قائمتَيه الأماميّتَين، وأمال أُذنَيه، وأحدّ نَظره في الأفق شعرتَ أنّكَ أمام حكيمِ دهره، وأريبِ عصره، وفريدِ زمانه.

أشار إليه (العَسعاس) ليقفَ عن يمينه ويُقرّبه منه نَجِيًّا، امتثل (الأطحل)، فشبّتْ نارٌ أحرقَ لهيبُها صدورَ كثيرٍ من الذّئاب، وحَكّ (العسعاسُ) أنفَه في عنق (الأطحل)، فاشتعلتْ نيرانٌ أخرى من الغِيرة، ونظَرَ في عينَيه طويلاً فانداح طوفان الحِقد يكاد يُغرق الكثيرين من المجتمعين هناك، وعرف (العسعاس) أنّ الذّئاب العشرة القريبة منه، تلك الّتي كانتْ أكبر وأقدم من (الأطحل)، والّتي رافقتْه في دروب المعرفة الوعرة قد أُوغِرتْ صدورُها، فشعر أنّه تسرّع في إظهار إرثه للأطحل، لكنّ الحقيقة لا تُخبّئ نفسَها، والعِلم أولى بالتّقدمة في المرتبة من السّنّ، فإنّ السّنّ يبلغه كلّ واحدٍ، أمّا العِلم فلا يؤتاه إلاّ ذو حَظٍّ عظيم.

تحرّك (العسعاس) في دائرةٍ قُطرها ضعفَ طولِ جسمه، فعرف مجتمع الذّئاب أنّه يتهيّأ للقول، فأصاخت السّمع، دار (العسعاس) دورتَين، وصعَد صخرةً كانتْ تشمخ من خلفه، ولم يعدْ هناك من أحدٍ أعلى مقامًا منه، كانتْ ذئاب الأرض كلّها، بقبائلها كافّة تسمع يومئذٍ. تنحنح (العَسعاس)، ثُمّ قال: «يا معاشر الذّئاب، لعلّ هذا آخر عهدي بكم، فلكلّ أجلٍ كتابٌ، وإنّي مُستخلفكم من كان يخاف الله فيكم... يا معاشر الذّئاب إنّه مَنْ يتّقِ ويصبِرْ فإنّ الله لا يُضيع أجرَ المحسنين، أَوْلى النّاس بالتّهذيب هي نفسُكَ الّتي بينَ جنبَيك، فلا خيرَ فيمن غلبتْه شهوتُه على عِفّته، ولا خير فيمن غلبَه طمعُه على قناعته، ولا خير فيمن

غلبَه جهلُه على حِكمته، العقلُ خيرٌ من السّلطان، والعِلم أنفع ما يُقتَنى ويُبذَل..

يا معاشر الذّئاب، إنّه مَنْ يعشْ منكم فسيرى عجبًا، استشرى الكذب حتى أكلَ أهل الصّدق، وفشت الخِيانة حتّى أتتْ على أهل الوفاء، واستُهزئ بالعاقل حتّى حُمِدَ الجاهل..

يا معاشر الذّئاب دمُكم حرامٌ عليكم ما حَيِيتم، إنّنا لسنا بشرًا يأكل بعضُنا لحمَ بعض، ويضربُ بعضُنا رِقابَ بعض، بل نحن عِبادُ الله، نأخذ ما شرع وأمر، ونترك ما نهى وزجر. يا معاشر الذّئاب دمُ غيركم حرامٌ عليكم إلاّ ما كان عن جوعٍ، لا تصيدوا إلاّ إذا لَزَبَتْكم الحاجة، ولا تزيدوا عليها ألبتّة؛ فمن زاد في الفضول فليسَ منّي ولستُ منه..

يا معاشر الذّئاب لا يفضُلُ بعضُكم بعضًا إلاّ بثلاثٍ: الحِكمة والتّقوى والعمل، فمنْ حازهنّ كان جديرًا بأنْ تُفضُوا إليه بمقاليد أموركم بعد أنْ يكون قد تعاقدَ عليه مجلسُ شُوراكم؛ مَنْ كان أحكمَ في القول وأنصحَ لإخوته قُدّم، ومَنْ كان أتقَى فيهم يُقدّم مصلحتهم على مصلحته قُدّم، ومَنْ كان يعمل لقومه دون أنْ يشكو، ويسمع دون أنْ يتذمّر قُدّم..

يا معاشر الذّئاب إنّنا لا نُعطِي قِيادنا إلاّ لمن خاف الله فِينا، ولا نُسلّم أمورنا إلاّ لمنْ رَعى ذِمامَنا، وعاشَ فينا مِنّا، يجوع إذا نجوع، ويعرَى إذا نعرَى، ويتعبُ إذا تعبْنا، ويأكل مِمّا نأكل، ويلبس مِمّا نلبس، فمَنْ رأى أنّه فوقَ ذلك نبذْناه ولا نُبالِي، والعاقبةُ للمُتّقين.

يا معاشر الذّئاب إيّاكم والكِبْر فإنّه أوّل ما أخرج إبليس من الجنّة.

وإيّاكم والطّمع فإنّه أوّل ما أودَى بآدم فأهبَطه من النّعيم. وإيّاكم والحِقد فإنّه نارٌ أوّل ما تبدأ بصاحِبها ولا ترضى إلاّ بأنْ تأتي عليه حتّى لا يبقى له منه شيءٌ. وإيّاكم والحسد فإنّه أوّل الدّم؛ به سوّلتْ نفسُ ابن آدم له قتلَ أخيه. وإيّاكم وكثرةَ السّؤال فإنّها أهلكَتْ مَنْ كان قبلَكم، فلا سبيل آمنُ من الحقّ، ولا طريق أوضح من الحقيقة. وإيّاكم والعزوبة فإنّها عذاب، وإنّ واحدنا دون أُنثاه صِفر، أرضٌ بلا زَرع، وسَماءٌ بلا مطر، ولا يُهاب إلا مَنْ كان ذا رَهطٍ. وإيّاكم والعُجبَ بالنّفس أو الاستِبداد بالرّأي، فإنّ المُعجب بنفسه يغرق في السَّبِخات، وإنّ المُستبدّ لينفضّ النّاس من حوله حتّى ما يبقى له أحدٌ. وإيّاكم والغضب، فإنّه يندر أنْ يُصيب غاضبٌ. وإيّاكم والكذب فإنّه يذهبُ بماء الوجه. وإيّاكم والبخل فإنّه خَلّة الأحمق: «كالعِيس في البيداءِ يقتلُها الظّما.. والماءُ فوقَ ظُهورِها محمولُ!!».

يا معاشر الذّئاب، شِرارُنا شَرٌّ من شِرار النّاس؛ لأنّ قلوبنا أرأفُ من قلوبهم، فإنْ أنكر أحدُنا قلبَه تخطّفتْه أشداق الشّيطان، فاربَؤوا بأنفسكم عن أنْ يستخفّكم لهو الشّيطان وعبثه. وخيرُنا خيرٌ من خِيار النّاس لأنّ عبادَتنا لله لا يشوبُها شِرك، فإنْ أشركَ أحدُنا فقد قضم الشّيطان قلبَه، فترفّعوا عن مصائد الشّيطان ومكائده، ووحّدوا الله يُوحِّدْ لكم رأيكم، ويُدنِ إليكم أربَكم.

يا معاشر الذّئاب، تراحَموا تُرحَموا، يدُ الله مع الجَماعة؛ فإنّكم تعلمون أنّنا لا نأكل من الغَنَم إلاّ القاصِية. أَحِبّوا بعضَكم بعضًا، وليأخذ القويّ من قوّته للضّعيف، والغنيّ للفقير، والكبير للصّغير،

أحِبّوا الآخَرين يكنْ لكم من حبّهم نصيبٌ، نحن نأخذ بمقدار ما نعطي؛ جعل الله ذلك دستورًا لكلّ خَلقه؛ هي سنّة الله ولن تجدَ لِسُنّة الله تبديلاً..

يا معاشر الذّئاب، هذا آخر عهدي بالدّنيا وبكم، فإنْ تمسّكْتُم بحبل الله المعقود على الشّورى نَجوتُم، وإنْ تمسّكْتُم بحبل الشّيطان المجدول على الشّرّ هلكْتُم..».

ثُمّ عَوى حتّى أشجَى كلّ مَنْ شهد الموعظة، وأبكى كلّ مَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شَهِيد. حرّك (العسعاس) قائمتَيه الأماميّتَين وهمّ بالنّزول من القِمّة. كان يريد أنْ يهبط حتّى يصل إلى بطن الوادي، ويُلقِي بنفسه بين يدي الله، فإنّ الحياةَ الطّويلة قد آذنتْ بالرّحيل. ما إنْ خَطا خُطوتين في هُبوطه الأخير حتّى خارتْ قُواه، أيكون للقول كلّ هذا الثّقل، أيكون للحِكمة كلّ هذا الهَمّ، هل تُهرِمُ الكلماتُ قائليها على هذا النّحو؟! صَعِدَ إليه (الأطحل)، تلقّاه قبل أنْ يسقط، وأعطاه كتفه ليستند عليها، كانت النّهايات تبدو أسرع مِن المتوقّع، هكذا هو الموت؛ زائرٌ على غير انتِظار. ظلّتْ كتف (الأطحل) تُسنِد (العسعاس) حتّى نزل من عليائه. قال له (العسعاس): «بِحكمتك وبطول أناتك وبحَدْبِك على إخوتك يُمكنك أنْ تجلس على المقعد الرّسوليّ من بَعدي». بكى (الأطحل). لكنّه ظل ممسِكًا (بالعَسعاس) حتّى لا يهوي. همس في أذنه: «رافِقني إلى النّهايات، إلى بطن الوادي، لديّ أسرارٌ أريد أنْ أبوحَ بها لك وحدك». ردّ عليه الأطحل: «أخشى أنْ يُثير ذلك خائنة الأعين وما تُخفي النّفوس». «سيفعل. ولكنّ لا بُدّ مِمّا لا بُدّ منه.

اتبعني». كانتْ عيون معاشر الذّئاب كلّها تشكّل حلقةً حول العجوز والفتى، حول الشّجرة الهَرِمة والغُصن النّضر، آذانُهم بكلّ ما فيها من دِقّة السّمع تحاول أنْ تلتقط ما يدور من حديثٍ هامسٍ بينهما، والعيون تحاول أنْ تُنكِر أو تستنكر ما ترى. لكنّ المشهد كان أكبر من أنْ يتخطّاه البصر.

في ذلك الفَجر، قبل أنْ تتفتّح بُرعمةٌ من تحت التّراب، وقبل أنْ تسقط قطرة النّدى من فوق ورقة الغيب، وقبل أنْ تطبع الشّمس أولى قبلاتِها على الثّرى؛ مات (العسعاس). صَلّتْ عليه كلّ ذئاب الأرض، وبكتْه كلّ الأفئدة، لكنّها لم تكدْ تُهيل التّرابَ على جسده الّذي مُلِئ حِكمةً وفهمًا وعلمًا، حتّى دبّ بينَها الخِلاف سريعًا فيمن سيخلفه. قال الأطحل: «اقرؤوا الآن على روحه الفاتحة، وأجّلوا الخِلاف؛ لدينا متّسع من الوقت لنختصم فيما بعد!!».

(٣)
للأنبياء قلوبٌ لا تَنام

الذّئبُ ريح؛ لأنّه يأتي من كلّ جهة. الرّيح ذئب؛ لأنّها تعوي مِثله. تُرى مَنْ أعار صوتَه للآخَر؟! الحادثُ يستعيرُ من القديم، والعارِضُ يستعيرُ من الأزليّ، والفَطِنُ يستعير من الحكيم؛ لا أقدمَ من الرّيح، ولا أحكمَ من الذِّئب!!

الأحلام أصدقُ من الحقيقة. ظَهْرُ الرّؤيا بَطنُ الواقِع. ما كان للرّوح من الرّؤيا في النّوم أشدّ وضوحًا مِمّا كان للجسد من الرؤية في اليقظة. صِدقُ الرُّؤيا أوّل منازل النّبوّة. للأنبياء قلوب لا تنام، ولهم أرواحٌ متّصلةٌ بالملكوت الأعلى ولِذا يَمّحي عندهم الخيطُ الفاصل بين ما يرونه بعيونهم في النّهار وبين ما يُبصرونه بقلوبهم في المَنام. الأنبياء ظلّ الله.

من بعيدٍ ركضتْ ذئابٌ كثيرةٌ إليه، إنّه يراها بوضوح، ابنه على ذروة الجبل، يُسنِد ظهره إلى شجرةٍ عتيقة. قُطعان لا يُرى لها آخِرٌ تنسلُّ من الوادي صاعِدةً إلى ابنه في قمّة الجبل، كانتْ أشداقُ الذّئاب تسيل زبدًا، وعيونها تقدح شررًا، إنّها ليستْ عيونًا عاديّة، إنّها جمراتٌ مُتّقدة، لكنّها تُشبه عيون البشر، «لماذا بدّلتِ الذّئابُ عُيونَها؟!» سأل نفسه، لكنّه أردفَ بعدَ لحظةِ صمت: «ربّما بدّل البشر جُلودَهم!!». كانتْ أجسادُها السّوداء ترتجّ تحت وقع عُوائها وعَدْوِها السّريع، إنّها تصعد

إلى القّمة، في المنتصف سقط نصفُ الصّاعدين، في الثّلث الأعلى تخلّى النّصف عن نصفه فسقط هو الآخَر، القمّة عالية، تكاد تُطامن السّماء، الذّئاب الّتي تصعد في خطوط متعرّجة سرعان ما يُصيبها الإعياء فتنكص على أعقابها راجعة، وحدها الذّئاب القادرة على العَدْو في خطّ مستقيم يُمكنها أنْ تواصل المسير، وتتجاوز الثّلث الأعلى. سقطتْ ذئابٌ أخرى. فزع الأب. إنّها تقصد ابنه الجالس باطمِئنانٍ دون أنْ يدري ماذا يجري من تحته. صرخ: «الذّئابَ يا يوسف... الذّئاب يا بُنيّ». ضاع الصّوت. حاجزٌ ما يقف بين الأب وابنه ويحول دون أنْ يرى الابن ما يراه أبوه، أو يسمعه. «الذّئاب... لقد صارتْ قريبة منك يا ولدي... الذّئاب إنّها أقربُ إليكَ من شِراكِ نَعلك». لكنّ ابنه كان في عالَمٍ آخَر. سقطَ الأب من هول ما يرى. أراد أنْ ينهضَ، لكنّ الحُلُم منعه، فظلّ يرى. كانت الذّئاب تتساقط في بلوغها الذّروة كما تتساقط الحجارة الصّمّاء إلى القاع، وتتدحرج من تحت القّمة كما تتهاوَى ثِمارٌ ناضجة عن أغصانٍ عالية. كانت الأرض تُطوَى من تحت أقدام الذّئاب فتُلقيهم إلى قَعر الوادي، عشرة ذئابٍ فقط من هذا القطيع الّذي لم يكنْ له نهاية في البداية، كادت تصل إلى أقدام ابنه. رآها يعقوب، رأى عيونَها بشكلٍ مُباشِر، كم تُشبه عيونَ أبنائِه، رأى البريق الّذي كان يراه في تلك العيون حينما يعملون في الحقول، حينَ يختلون، يهمِسون فيما بينهم: «إنّنا نتعب كلّ هذا التّعب، وهو يُجلِسه على حضنه كأنّه مَلِك». وتلمعُ عيناه، إنّهما عينا ذِئب ولو أنّ النّهار ستَر بعضَ لهيبهما، فيرد آخَر: «الدُّنيا حُظوظ». فيهتفُ ثالثٌ غاضِبًا: «الدّينا ليستْ حُظوظًا، الحمقى هم الّذين يُؤمنون بذلك، أمّا نحن فنستطيع أنْ نأخذ حقّنا بالقُوّة، إذا كنتم

أنتم لا تستطيعون، جبناء، فأنا أستطيع»، ويلوّح بقبضته في الهواء وهو يُزبِد.

نظر (يوسف) في الأفق، كانَ ليلٌ، دُهِشَ وهو يرى صفحة السّماء بلا نجومٍ، ليسَ فيها ما يخفّف ولو قليلاً من الظّلام الجارح، العتمة تُلقي بسربالها عليها فتبدو حالكة السَّواد، تساءَل: «أين ذهبت النّجوم؟». فَكّر فيما إذا انطفأ نورُها، أو سقطتْ خلفَ القبّة السّماوية، أو غاصتْ في سُجُفات الأفق. تناهى إلى سمعه في هذا الظّلام أصواتٌ عاوِية تأتي من أسفل الجبل وتصعدُ باتّجاهه، لم يهتمّ كثيرًا، لكنّه انزعج من أنْ تقطع عليه هدوءَه، وسكون جوارحه. فحرّكَ أسفلَ جفنَيه، ورمَش، وهَزّ رأسَه، سقطت الأصواتُ مثل نملٍ من أذنَيه، رآها كراتٍ صغيرةً جِدًّا تتدحرجُ في حِجره، نفضَها برؤوس أصابعه وأزالَها، ثُمّ رفعَ بصره إلى السّماء يُراقب الأفق البعيد. نَمْلُ الأصوات سكنَ لفترةٍ من الوقت، لكنّه بدأ يتحرك من جديدٍ، لم يَشغَلْ باله كثيرًا. أكثرُ ما يهمّه الأفق، أنْ يرى فيه شيئًا، إنّه لا يحبّ كلّ هذا السّواد الّذي يُغطّي كلّ شيءٍ. السّواد الطّاغي يُشعره بانقِباضٍ في الصّدر. فجأةً رأى نورًا يتّجه من موضعه إلى الأفق، استغربَ أنْ يكون هو مصدرَ النّور، نظرَ إلى نفسه فرأى ذلك النّور ينبثق من قلبه، فَرِح. اتّسع النّور في السّماء، صارَ يتحرّك، وقفَ في أقصى الأفق من جهة اليمين، كشفَ له عن كوكبٍ دُرّيّ، كان كبيرًا، واضِحًا غيرَ مُنكَر، وجليًّا لا تُخطِئه العين، وشديد التّوهّج حتّى لكأنّه يلتهب. ابتسم في أعماقه؛ نورُ قلبِه يضيئُ العتمات ويكشفُ المُخبّآت. راح النّور ينتقل إلى اليسار، ماسِحًا سوادَ السّماء، وقفَ عند كوكبٍ آخَر، أصغر بقليلٍ من سابِقه، يطوفُ حول مركزه

بنشاطٍ بيّنٍ، ابتسمَ له من جديد، مَدّ يده، ظنّ أنّه يُمكن أنْ تصلَ إليه، لكنّ صوتًا عاوِيًا ظهر من جديد، فأعادَ يدَه إلى موضعها. انتقل النّور ثالثةً فكشفَ كوكبًا ثالِثًا... وهكذا ظلّ النّور الصّادر من قلبِه يكشفُ في كلّ مرّةٍ كوكبًا أصغرَ من سابِقه، حتّى إذا أضاء أحدَ عشر كوكبًا، وقف شُعاع قلبه عند الكوكب الأخير، كان أصغرها، متناهِيًا في الصّغر كأنّه لم يولَد إلاّ أمسِ، أحسّ أنّ نور قلبِه انغمسَ فيه، كأنّ شيئًا من دمائه تجري فيه فتزيدُه بهاءً وجَمالاً حتّى كأنّه هو إيّاه، ابتسم هذه المرّة حتّى بانتْ نواجذه، مدّ ذراعَيه نحو كوكبه الأخير، سمع الصّوتَ العاوي من جديد، لكنّه شعر بتدفّق الحبّ يطغَى على العُواء، أخذَ أصغر الكواكب بين يدَيه ضَمّه إلى قلبِه كأنّه طفلٌ رضيعٌ تتلقّفه يدُ أمٍّ حانِية، ثُمّ أراح رأسه فوقَ كَتِفه وشعر بحرارة الحبّ، همَسَ الكوكب الصّغير في أذنه: «أعدْني إلى مكاني». رفعه بين ذراعَيه، ونظر فيه مليًّا: «كوكبٌ يتحدّث؛ يا للعَجب!!». رقصتْ قدما الكوكب كطفل، أعاده إلى مكانه. انتقل شعاع النّور إلى الأعلى. رأى الشّمس، ندّتْ منه آهةُ استغرابٍ معتّقة: «أشمسٌ وليل؟ كيفَ يجتمعان؟!». لم يمهله النّور أنْ يجد الإجابة، فانتقل إلى يسار الشّمس فكشفَ القمر. «أيُّ جَمالٍ هذا؟!». قالت له الشّمس: «الحذر واجب». ردّ: «أنا في نعيم». أردفَ القمر: «أضغان القلب توقعُ في الجحيم». لم يفهم. صمتَ كلّ شيءٍ. نبتتْ للكواكب أرجل، وأيدٍ، وجذوع. نبتَ للشمس وجهٌ باسمٌ، وساقان، نبتَ للقمر خدّ أسيل، وفمٌ ضاحك، وقفوا جميعًا؛ أحدَ عشر كوكبًا، ومن فوقهم الشّمس والقمر، ثُمّ خرّوا له ساجِدين، نفضَ رأسَه بسرعةٍ وأغمضَ عينَيه، كان يريدُ أنْ يمحو المشهدَ العجيب، حينَ فتح عينَيه ثانيةً كانوا لا

يزالون في سجودهم. التفتَ حولَه، ثُمّ خلفَه، حدّثَ نفسَه: «لعلّهم سجدوا لسِواي»، لم يكنْ في قمّة الجبل سِواه!

ارتفعت الأصوات العاوِية، شيءٌ ما في قلبه قال: إنّها قريبةٌ جِدًّا. انطفأ النّور الّذي كان ينبع من قلبه، سقطت الكواكب، وامّحى نور الشّمس والقمر، غرق الجبل في دُجُنّة قاتِمة، لكنّه ظلّ ينظر في الأفق. كان أبوه ما يزال يصرخ: «الذّئاب يا يوسف» لكنّه لم يكنْ يسمع أحدًا.

وصلتِ الذّئاب العَشَرَةُ إليه، أحاطتْ به، شعرَ بحركةٍ من حوله، لكنّ الظّلام لم يُمكّنه من أنْ يرى، غيرَ أنّ أباه كان يرى كلّ شيءٍ، هَمّ أحدُها بأنْ ينقضّ على الطّفل الّذي كان يُسنِدُ جِذعه إلى جذع الشّجرة. تصدّى له ذئبٌ رماديّ شديد بَياض البَطن: «لن تصل إليه». «خَلِّ بيني وبينَه». «إنّه نبيّ، وإنّ أجسادَ الأنبياء محرّمة على التّراب؛ فكيفَ لا تكون محرّمةً علينا؟!». «إنّه ولدٌ؛ مَنْ قال لك إنّه نبيّ؟!». «أنا أعرف». «كيف؟». «أنا الأطحل، ورثتُ الحِكمة عن أبينا الأقدم؛ العَسعاس». «لتذهبْ أنتَ والعسعاس إلى الجحيم، لن أفرّط في لحمٍ طريّ كلحم هذا الغُلام الّذي لم يبلغ الحلم». «دمي دون دمه». «وتخونَ جنسنا من أجل بشريّ؛ ألم تر كيفَ يأكلُ بعضُهم بعضًا؟!». «رأيتُ. لكنّنا لا يُمكن أنْ نصير مثلهم. صِفات البشر ليستْ صِفاتِنا، وطِباعهم ليستْ طِباعَنا». «نحنُ وأنتَ، تسعةٌ في مقابل واحد، المقامرة بالقِتال من أجل بشريٍّ أمرٌ لا يستحقّ كلّ هذا». «لا تخنْ عهدَنا، نحن لا نأكل إلاّ عن جوع». «ونحن جائِعون». «كَلاّ. تركتُ لكم ظبية الوادي من أجل هذه اللّحظة إنْ كُنتمْ فاعِلين. لحوم البشر ليستْ كلحوم الحيوان، إنّها لا

تُستساغ». تراجعت الذّئاب. عوتْ عُواء المألومين، أحدّت العُواء. أفزعتْ كلّ شيءٍ. أرادتْ أنْ تُخرِج كلّ هذا القَهر الّذي صنعه (الأطحل) في صدورها. استيقظَ الأب فَزِعًا. كان يصرخ: «يوسف... الأطحل... يوسف... حبيبي... يـ.. ووو... سـ.. ف». ارتجفَ وهو يضع قدمَيه في الخفّ، تلمّسَ الطّريق في الظّلام، مدّ يده إلى الرّداء الأرجواني ليلبسه، لم يظفر به في الظّلام، أراد أنْ يُشعل المِصباح، لكنّه لم يتمكّن... تعثّر... زفرَ زفرةً حارّة... عرجَ وهو يتخطّى عتبة الباب... ثُمّ خرجَ يركض. لم يدرِ إلى أيّ جهة. ركض مسافةً قبل أنْ يتوقّف من الهلع، ويستعيدَ بعضًا من رُشدِه. لهثَ، سأل نفسه وهو يلهثُ مفزوعًا: «أينَ يقع بيت فائِقة؟». نظرَ حوله، اكتشف أنّه ركض لهول ما رأى في المنام إلى الجهة الخطأ! استدار وركضَ إلى الجهة المُقابلة، إلى بيتِ أخته من جديد.